

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في الأولين والآخرين ، وعلى من اتبع هداه واستن بسنته إلى يوم الدين ، ربنا آتانا من لدنك رحمة ، وأنطقنا بالحكمة ، واجعلنا من الراشدين فضلا منك ونعمة . وأخرجنا اللهم من ظلمات الوهم ، وأكرمنا بنور الفهم ، وعلمنا ما لا نعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم .

ونعوذ بك اللهم من شرة اللسن ، وفضول الهذر ، ونستوهب منك توفيقا قائدا إلى الرشd ، وقلبا متقلبا مع الحق ، وإصابة ذائفة عن الزيغ ، وبصيرة ندرك بها عرفان القدر ، وأن تسعدنا بالهداية إلى الدراية ، وتعضدنا بالإعانة على الإبانة وتعصمنا من الغواية في الرواية ، وتصرفنا عن السفاهة في الفكاهة ، حتى لا نرد مورد مأثمة ، ولا نرتهن بتبعة ولا معتبة ، ولانلجأ إلى معذرة عن بادرة<sup>(١)</sup> .

أما بعد فهذه رسالة في «منهج قراءة التراث الإسلامي» أقدمها إلى حملة العلم ، المستشرفين لقراءة علمية للفكر والتراث الإسلامي ، المتطلعين إلى منهج أصيل في قراءة الآثار والأفكار ، والاستفادة من هذا التراث الذي راكمت فيه الغث والسمين ، وخبب المتزيدون فيه وأوضعوا ، فشغلوا هذه الأمة بالفضول والحشو عن الاشتغال بما ينفع المسلمين من أسباب الرقي العلمي والحضاري .

وقد تصدى أعلام الأمة من حملة ألوية النقد لنخله وغربلته والدفاع عنه كما قال النبي ﷺ «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»<sup>(٢)</sup> .

(١) عن مقدمة المقامات الأدبية لأبي محمد الحريري ٥١٠ هـ : ٩ بتصرف

(٢) أخرجه الدار قطني في السنن ، والطبراني في مسند الشاميين : ١ / ٣٤٤ وابن عبد البر في جامع بيان العلم / ١ / ١٨٠ ، وفيه بقية بن الوليد مدلس ، قال القاسمي وتعدد طرقه يقضي بحسنه كما جزم به =

وتندرج أهمية هذا الموضوع ضمن مشروع «تجديد الفكر الإسلامي» لما يهدف إليه من الاستفادة من النقط المشرقة في تراثنا الفكري والحضاري، وترك الاشتغال بما ضيع على الأمة زمنا في الجدل العقيم، والتعلق بالفكر الوافد دون فائدة.

فإن الأمة اليوم في زمن أحوج ما تكون فيه إلى ترك الحشو والفضول الذي هو من حسن إسلام المرء، وتصفية المشارب، والاشتغال بما يفيد من عصارة هذا الميراث الفكري والحضاري، وامتلاك ناصية العلم، والتحكم في المعارف بمناهج النقد والأخذ والرد، لا بالتقليد والاجترار، وفقه سنن الله في تغير المجتمعات وتعاقب الحضارات، والنظر فيما ينفع الأمة نظر تطوير وإبداع، لا نظر ترف وامتناع، بالتغني بالأمجاد والوقوف على الأطلال.

ذلك أن إخلاصنا لأسلافنا لا يكون بالمحافظة على تراثهم كأنه رماد ميت بغثه وسمينه، أو جثث محنطة بعيدا عما ينفع الناس في واقعهم اليوم، لكن بغربلته وإحالة أفكارها حيا متوقدا، ومشعل نور يبعث الحياة في حاضرنا ومستقبلنا، بما فيه من جواهر كريمة، وكنوز دفيئة، ينبني عليها التقدم العلمي الحضاري لأمتنا.

ولطالما شغلتنني فكرة هذا الموضوع بعد طول بحث في مجال نقد التاريخ الإسلامي، لما اطلعت عليه من البلايا والرزايا التي أصيب بها تراث المسلمين من لدن القاسطين، وأهل الأهواء من الفلاسفة والمتكلمين، وهو تراث تليد، يمثل جانبا مهما من المعرفة الإسلامية، بُنيت عليه مواقف وأفكار ومذاهب عبر التاريخ، صحح العلماء المحدثون والمفكرون جوانب منها، وما بقي وخفي أعظم<sup>(١)</sup>.

= العلائي: قواعد التحديث ٤٧، وذكره ابن القيم في مفتاح السعادة وقواه لتعدد طرقه ١/ ١٦٣-١٦٤. واستظهر ابن الوزير اليباني صحته وحسنه لكثرة طرقه، ونقل ابن عبد البر تصحيح الإمام أحمد له، وترجيح العقيلي لإسناده «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم: ١/ ٢١-٢٣» (١) وقد فصلت ذلك في «إعادة كتابة التاريخ الإسلامي في ضوء منهج الجرح والتعديل»، ومن كتب في هذا الموضوع الشيخ أحمد شاکر ~ ، ومحب الدين الخطيب في تعليقاته على العواصم من=

وقد تحصل عندي أنه لم يكن أضر على المسلمين من مطلق القبول والتسليم بكل ما قيل وأثر في تراث الماضين ، وتعطيل نعمة النظر ، والغفلة عن منهج الأخذ والرد في العلوم ، إذ تقرر أن كل الناس يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ .

ومن بواعث تصنيف هذه الرسالة أنه جرى في بعض أندية العلم والأدب حديث عن قواعد منهجية تشد الفكر ، وتسدد النظر وتصونه من الاسترسال في الخطأ والزلل في التلقي والاستدلال ، إثر محاضرة مع بعض الفضلاء ، من بقية أهل العلم في هذا الزمان ، فأشار بعضهم أن لو أُلّف فيها مصنف جامع لبعض قواعد المعرفة ومنهج النظر في التراث لكان للنظرين إماما ، وللسادرين في ميادين الفكر زماما .

فاستعظمت هذا الأمر وأحجمت عنه زمنا إجمام المرتاب ، رغم تحرك باعث الهمة للكتابة والتصنيف فيه ، لأنه علم صلف ، كان للسلف فيه إشارات وعبارات في أصول البحث والمناظرة ، وتفرقت قواعده عند أهل العلوم والفنون ، وقل المعانون له من غير نقاد الحديث والرجال وعلماء الأصول .

ثم من الله بعد حين بولوج هذا الباب ، واستخلاص ما في قواعده من اللب واللباب ، وهو علم ركدت في هذا العصر ريجمه ، وخبث مصابيح ، وهزلت صناعته في سوق العلوم والمعارف ، لاسيما وأن النظر في الفكر الإسلامي اليوم أصبح ميدانا مشرع الأبواب يلز فيه كل دعي ، ويلججه الصغير والكبير ، وقل أن يلتفت المستعجلون فيه إلى قواعد العلم وضوابط المعرفة ، لكونها مسالك وعرة تفرقت في شعاب المعارف والعلوم ، تُضني الأفكار ، وتشقى في مداركها العقول والأنظار ، وتكبح جماح المجترئين بلجام الأدلة ، وتحقيق صحة الدعاوى والأخبار ، مما تفنى دونه الأيام والأعمار .

= القواصم لابن العربي، والشيخ محمد عابدين أبو اليسر في كتابه «أغاليط المؤرخين» والدكتور أكرم ضياء العمري في «صحیح السيرة النبوية»، و الدكتور عماد الدين خليل في كتابه «في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج» .

وما نحن فيه بإزاء من مضى من صياغة المعرفة ونقاد الآثار إلا «كقبل عند أصول نخل طوال»، إذ هو مقام يحتاج إلى انتخاب معادن العلوم وأباريزها، وينأى عن حشد شذورها وفضولها، مما تراكم من أخطاء حبلت بها بطون كتب التراث، وما تسرب من جهة أهل الغفلة الناقلين عن كل من هب ودب، كحاطب ليل، وجارف سيل.

ومن ثم فإن الزلل في هذا المقام يكون من جهة إكثار القيل والقال، والتسليم بكل ما أثار في تراث الماضين من رأي أو مقال، دون تمييز بين غث وسمين، أو معرفة شمال من يمين، وقد قل أن سلم مكثار، أو أقيـل له عثار.

فإن خلع رسن العلم والتأصيل، وإلقاء الكلام على العواهن بغير دليل أهون شيء عند المجترئين، وهو سبب ما ظهر اليوم بين المعاصرين من الغشاء الذي ينشر باسم الفكر الإسلامي، مما صنعه أصحاب ثقافات بالية مغشوشة.

ومن المعلوم أن كل الصنائع والعلوم لها أبواب وعليها محتسبون، إلا مجال الفكر والتراث الإسلامي فقد أصبح مع هؤلاء مهيعاً واسعاً ومرعى فسيحاً مشرع الأبواب لكل من ظهر له رأي يهذي به في المنام، تراه يتسور هذا الحمى، ويتولج مجال التنظير، ليسود أعمدة الصحف بكلام سخيف، ويملاً دنيا الإعلام شغباً وضجيجاً، دون أناة نظر وتأصيل، أو إثارة من دليل، وقد تسربت هذه الجرأة على التراث إلى ميادين البحث العلمي، حيث ابتلينا بمن أصبح يهذي بذلك على كراسي الجامعات باسم حرية الفكر والنظر والاجتهاد.

ولا يخفى أن صناعة التأصيل ونقد المعارف مقام يحار فيه الفهم، ويفرط فيه الوهم، ويسبر به غور العقل، وينكشف به معدن الإنسان في العلم والفضل، ولا يزال المرء في فسحة من أمره ما لم يؤلف كتاباً أو ينظم شعراً، أو ينتقد رأياً، ومن ألف فقد استهدف، لأن رضا الناس جميعاً غاية لا تدرك.

لكن من جرد النية لخدمة العلم بما يراه صواباً لا ينبغي أن يعاب بما عاب له، مما قيل

أو يقال ، فإنها تدرك غاية الأنظار بعد استكمال العُدة بخوض الغمار ، ونحت الأفكار في الميدان ، كما يمعن في ذلك أهل الباطل بقوة وجلد لا يترددون ولا يلتفتون إلى الأغيار ، في عالم لم يعد فيه موطئ قدم للعاجزين ، ولا أثر يُسمع فيه للنوكى والمقصرين ، كما قال أمير الشعراء شوقي ~ :

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً  
إن الحياة عقيدة وجهاد

أما من تنكب الصراحة فيما يراه صوابا ، وتَحَسَّب آراء الخلق ، خشية حصائد ألسنة بني الإنسان ، فقد وجب أن يكون حلس بيته ، وينام في مناخ البطالة قانعا بظنه وحده ، فينفسح المجال حينئذ للعابثين ، وترتفع أصوات المبطلين ، ويصبح المحجم عن النزال بعد استشرء الأهواء والفتن كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه .

وقد أثرت الاقتصار في هذه الرسالة على الجوانب المنهجية في تأصيل المعرفة الإسلامية ونقد التراث ، لما للمنهج من خطر عظيم في إدراك الحق ، أو الانزلاق نحو الباطل ، إذ أن الاشتغال بنخل الفروع المتشابهة لا ينضبط بغير أصول ومنهج يرجع إليه ، لأنه أمر تفنى دونه الأعمار ، وتنقضي في غمراته الأزمان ولا ينتهي .

ومن ثم فإن قضية المنهج هي من «الفقه الأكبر» الذي لا يستقيم العقل المسلم ولا يرشد إلا به ، ومن أجل ما ينبغي أن يُعنى به الناظرون في الفكر الإسلامي قبل التفكير والتنظير ، إذ سلامة المنهج سبيل الرشاد في فهم التراث ، وتمييز الحق من الباطل ، ومناطق سداد الفكر والسلوك ، مما لا يرجى بغيره للأمة سيادة ولا ريادة .

كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢] .

وأمتنا اليوم في أمس الحاجة إلى تشخيص علل الفكر وأدواء المعرفة ، لإدراك الآفات التي حالت بيننا وبين مقام الريادة ، كما كان أسلافنا من قبل ، وجعلتنا ذيلا وذليلا غيرنا ، متعلقين بما أحر الأمة زمنا ، وأغرقها في الأهواء والخلافات، التي لم

تجن منها خيرا يُذكر .

ولا يتم ذلك إلا بفقهِ معالم المنهج في تأصيل المعرفة وصيانة التراث الإسلامي من تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وكشف زيف مناهج القاسطين وأثرها على الفكر والتراث ، تنزيها لفكر الأمة من الحشو والفضول .

وهو سبيل حسن فهم الدين ، واستيعاب النافع من التراث ، واستخلاص الفكر الإسلامي الأصيل ، وتصفيته من ترهات الفلاسفة والمتكلمين ، وتحريف الغالين من دعاة الحداثة الذين جعلوا القرآن والسنة عضين ، وبعثوا في الأمة أفكارا دخيلة ، علقت بعقولهم من أوهام وأساطير الأمم ، ينفرون بها الناس من الدين ، حتى صار في مجتمعات الحداثة رسوم في كتب التراث ، لا أثر له في واقع الحياة .

وقد يجد القارئ في مطاوي هذه الرسالة عبارات يراها نابية عن سمعه ، ويحسبها جارحة بحسب طبعه ، فليعلم أن صيانة حمى الحق لا يُنال بالمصانعة والمداهنة . فلئن كان إحقاق الصواب لا ينسينا حسن الخطاب ، فإن التلطف في دحض الباطل لا يثنينا عن رفع النقاب ، وكشف الألقاب ، نكاية بالقاسطين ، وشفاء للمُقسطين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «ولا ريب أن الألفاظ في المخاطبات ، تكون بحسب الحاجات ، كالسلاح في المحاربات ، فإذا كان عدو المسلمين في تحصنهم وتسليحهم على غير الصفة التي كان عليها فارس والروم ، كان جهادهم بحسب ما توجهه الشريعة ، التي مبناها على تحري ما هو أطوع ، وللعبد أنفع»<sup>(١)</sup> .

فدع عنك كلمات المداهنين الذين يرون من الحكمة مغازلة المبطلين ، ورمي باطلهم بصوف منقوش ، لا دمغه بحجر منقوش ، تأليفا للقلوب ! وحسب المرء تحري العدل والإنصاف مع المخالفين حمدا وذما ، بنقد الأفكار دون إزراء بذوات الرجال ، والحرص على حفظ أدب الخلاف مع العلماء من أولي السابقة والغناء ، وهو

(١) فتاوى ابن تيمية : ٤ / ١٠٧ .

أدب لا يحفظ مع السفهاء المجترئين على الملة ، والمجاهرين بنقض عرى الإسلام .  
ومن ثم فإن مصنفنا كهذا إن سر قوما من أهل التجرد ، ممن لا يضرهم بيان خطأ  
مؤالف ، أو ذكر صواب مخالف ، فإنه يغيب آخرين من أهل التعصب للطوائف  
والرجال ، ممن كثر سوادهم في هذا الزمان .

ولست بحمد الله ممن يطلب مرضاة الخلائق بالمحاباة والمداراة فيما أراه صوابا ،  
كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقال  
الشريف المرتضي :

إذا الله لم يعذرك فيما ترومه فما الناس إلا عاذل ومؤنب

والمرء إن حظي بثناء محب متغاضي ، أو إغماض فطن متغابي ، فإنه لا يسلم من  
قدح غمر جاهل ، أو نكد خصم متجاهل ، يضع الكلام في غير مواضعه ، ويجمله  
على غير محامله ، ثم يحشر نفسه في مضايق تكفل الله بها من أمر النيات والسرائر ،  
وينتصب كاهنا يكشف عما في الضمائر ، ويقيم جلبه وصياحا لنصرة باطل أو فهم  
كاسد جاء به مؤالف ، أو رد حق قال به مخالف ، حتى إنه ليرى حملة العلم بين هؤلاء ،  
أضيع من الأيتام في مأذبة اللثام ، كما حصل للزمنخشري مع أهل زمانه حيث قال :

وأخربي دهري وقدم معشرا على أنهم لا يعلمون وأعلم  
ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني أنا الميم والأيام أفلح أعلم

ذلك لأن العلم أصبح فضلة ونافلة في حياتنا ، والقراءة أضحت وقت فراغ في  
أيامنا ، و آل أفاضلنا أنصاف مثقفين ، وأحيانا أميين ، أو أشباه الأميين ، وهي حال  
لا يُرجى معها خير لهذه الأمة حتى يستقيم ذلك العوج فينا ، إذ لا يستقيم الظل  
والعود أعوج ، فلا يقوم لله بالحجة في الأرض سوى أجيال من العلماء الراسخين ،  
في شعب العلوم ، بمنهج أصيل ، لأنه لا يقود الأعمى البصير .

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم لقد ضل من كانت العميان

وإنه لا يليق بعاقل أن يدع صفاء المنهج الإسلامي الأصيل وظلاله الوارفة ، ثم

يتعلق بأهواء لم تزد أصحابها إلا اختلافاً وبعداً عن الجادة ، ويرضى لنفسه مراتع القاسطين ليققات منها ، مع إدراكه ما أورثت الأمة من علل وأسقام ، لكن الناس سراع إلى أهواء الدنيا .

فلو تخلص المسلمون من نفايات التراث ، وما حملته من نحل وأهواء محدثات أنشبت بينهم خلافاً ونزاعاً ، وسلموا لما جاء عن الله ورسوله ﷺ لسلمت أحوالهم ، واستعانوا على عدوهم بوحدة المنهج والكلمة ، بدل أن يقتتلوا تعصبا لآراء المبطلين ، ممن لم تجن الأمة من وراء أهوائهم سوى الشوك وخرط القتاد .

وما أحوج أمتنا اليوم إلى أذهان مرتبة ، وعقول مبصرة ، حتى نغالب أمم الأرض ، في وقت اتجه الأعداء فيه إلى استثمار العقول والأدمغة ، ونامت الأمة عن ذلك . ومعلوم أن ترتيب الذهن لا يكون بزحمة الآراء ، أو تجميع حشود النظريات والأفكار الملتقطة من هنا وهناك ، ورقاعات ما تقذف به الصحف والجرائد كل يوم . بل بفقهِ سنن الله الكون ، وإدمان النظر في محكمات الشرع ومتطلبات العصر ، مما ينفع الأمة في صناعة الحاضر والمستقبل .

والله تعالى نسأل أن يبصر المسلمين بما فيه صلاحهم وهداهم ، وأن ينفع بهذا المصنف كل مطلع عليه ، وهو جهد المقل ، لا ادعي له التمام والكمال ، فما كان منه صواباً فمن الله وما كان خطأً فمني ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

أبو جميل الحسن العلمي

آزرو- المغرب ١٤٣١هـ